تهتم الأمم والدول دائما بتسجيل ذكرياتها وأحداثها، وتخليد أمجادها وأمجاد العظماء والمصلحين فيها، ثم تصبح هذه الذكريات والأحداث والأمجاد بعد حين من الزمن تاريخا مضى، يقرؤه الناس وينظرون إليه من بعيد، ويرونه ماضيا قد تجاوز الزمن، وتجاوزته الأحداث والأحوال والأمجاد.

أما تاريخ رسول الله ﷺ فلا ينظر إليه المسلمون من بعيد على أنه تاريخ مضى قد تجاوزه الزمن، بل على أنه تاريخ حيّ متجدد لشخصية فاعلة نابضة بالحياة والحركة، تعيش عبر الزمن كله، وتحيا في الناس جميعا في كل وقت وفي كل مكان؛ تهديهم إلى الحق، وتوجههم إلى الخير، وتأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة والرشاد، والسعادة في الدنيا والآخرة، لقد أشرقت وفادة رسول الله ﷺ إلى الدنيا في جزء من الأرض، ولكن وجوده قد طبق الأرض كلها، واستوعب الدنيا جميعا.

ولقد أشرقت وفادته إليها في جزء من الزمن، ولكن وجوده قد استوعب الزمن كله: غابرة، وحاضره، ومستقبله.

لقد تجلى وجوده في أغوار الماضي البعيد – بصفاته ونعوته- حتى قبل أن يفد الإنسان الأول (آدم ﵇) إلى هذه الدنيا، وفي الحديث ﴿كنت نبيّا وآدم بين الروح والجسد﴾ وفي رواية ﴿وإنّ آدم لمنجدل في طينته﴾ أي: لم يكن بعد بشرا سويّا.

ولقد تجلى وجوده على لسان كل نبيّ أرسل، وفي كل كتاب أنزل، حتى عرفت الدنيا جميعا سيدنا محمدا ﷺ قبل وفادته إلى الأرض، ومجيئه إلى الدنيا، وحسبنا هذا العهد الذي أخذه الله تعالى على أنبيائه ورسله جميعا: لئن جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمن نبه ولينصره، وأشهدهم بذلك على أنفسهم، وشهد بذلك عليهم، فقال سبحانه ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

وسواء أكان هذا العهد والميثاق قد أخذه الله على أنبيائه ليؤمنوا برسول الله محمد ﷺ ويصدقوه (إيمانا بغيب) أم كان عهدا وميثاقا ليأخذه الأنبياء والرسل على أقوامهم وأممهم ليؤمنوا به إن أدركهم عهده، أو أدركوا رسالته.

وسواء أكان هذا التصديق من رسول الله ﴿مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾لما جاء في كتبهم من العقائد والمبادئ ، أم لما ورد فيها من صفاته ونعوته.

سواء أكان هذا أم ذاك، أم كان ذلك جميعا، فإن هذا العهد والميثاق بربنا كيف كان ذكر رسول الله ﷺ في الأولين قبل أن تتشرف الدنيا بوفادته إليها، وكيف كانت صفاته ونعوته وذكره في السابقين.

لقد كان وجوده بهذا المعنى سابقا على ميلاده، ولا نجد أحدا قد سبق وجوده ميلاده إلا ما كان من رسول الله ﷺ.

وفي حديث عطاء رضي الله عنه قال: قلت لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: صف لي رسول الله ﷺ في التوراة – وكان عبد الله قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب في موقعة اليرموك كان يحدث الناس منهما– قال : والله وإنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا تدفع بالسيئة الحسنة، ولكن تعفو وتغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا﴾.

ويقول صلوات الله وسلامه عليه ﴿أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى﴾ عليهما السلام، أما وجوده حال حياته: فكان نعمة الله إلى الدنيا، ورحمة الله إلى العالمين. كما قال عز وجل ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ويقول ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولقد بقي رسول الله ﷺ بيننا اليوم، وسيبقى بعد اليوم بهديه وسنته يضيء لنا جوانب الحياة، ويهدينا الطريق السويّ إلى الله.

وإنه لخليق بنا –في معرض هذه الذكرى المباركة– بل وخليق بالمسلمين جمبعا وفي مشارق الأرض وفي مغاربها؛ أن يستعرضوا تاريخها، وأن يستعيدوا أحداثها، وأن يعيشوا مع العبرة منها؛ ليوقظوا بذلك غوافل العقول، ويحيوا بذلك موات القلوب، ويجددوا بذلك شباب الإيمان في قلوب المؤمنين، ولينشروا بذلك ما طواه سجل التاريخ من دوافع المجد والعظمة، ومن إشراقات النور والهدى، ومن بواهر العلم والحكمة، هذا التاريخ النضير الحافل الذي اختطه هذا النبي الأكرم بعلمه وحكمته، بصبره ومثابرته، بثقته وإيمانه ويقينه، بآدابه وأخلاقه وسلوكه.

خليق بالمسلمين أن يقلبوا هذه الصفحات الخالدة، وأن يستعرضوا هذه المآثر الوضاءة المشرقة؛ ليتخذوا منها منارا يهديهم في مدلهمات هذه الحياة وظلمات هذه الدنيا، وقبسا يبدد عنهم غياهب هذه الفتن التي ارتكسوا فيها إلى الأذقان.

إن الاحتفاء بميلاد رسول الله ﷺ هو في الحقيقة احتفاء بميلاد رسول الله ورسالته، احتفاء بميلاد دولة وتاريخ وأمة، احتفاء ببعث جديد لأمة تحمل مشعل الهداية، وميراث النبوة وعهد الأنبياء والمرسلين جميعا.

وإنها لحكمة بالغة، وآية من آيات الله الباهرة أن يخرج الله للناس مثَلَهم الكامل، وقدوتهم المباركة من بين أكثر بقاع الأرض جدبا، وأقلها علما؛ بل وأعرقها جهالة، فمن بين الجهالات التي شوهت الفكر، والخرافات التي لوثت الفِطَر، والأباطيل التي طمست الحقائق، والوثنيات التي زيفت العقائد والمبادئ .

من بين بواعث الشرور، ودواعي الغرور والفجور، ومعاقل الإثم والفساد، من بين القلوب المقفرة، والبصائر المظلمة، والأخلاق الجائرة، والطباع الغليظة، أخرج الله للناس المثل الأعلى، والصور المشرقة، والرحمة المهداة؛ ليطهّر الناس ويزكّيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وإنها لحكمة بالغة وآية باهرة، أن يقتلع محمد ﷺ سخائم هذه القلوب، وأوضار هذه النفوس، وركام هذه الجاهلية، وعقائد هذه الوثنية في هذا الأمد اليسير، الذي لم يتوفر مثله لغيره من المصلحين أو الأنبياء والمرسلين.

لقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه ليلا ونهارا، فما آمن به إلا قليل، ولما علم أنه لن يؤمن به إلا من قد آمن بعد هذا الأمد الطويل والجهد المرير، كان تبرؤه منهم، ودعوته عليهم ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾

ولقد لبث إبراهيم عليه السلام في الصابئة من المندائيين عبدة الشموس والأقمار، والحرانيين: عبدة الأصنام والأوثان، زمنا طويلا يدعوهم إلى الله، فلم يستجيبوا لدعوته، بل تآمروا على قتله وإحراقه بالنار، فتركهم وما يعبدون، وخرج مهاجرا إلى الله.

ولقد لبث موسى عليه السلام في بني إسرائيل أمدا طويلا يدعوهم إلى الله، ورغم ما رأوا من آيات ربهم يطلبون إليه أن يريهم الله جهرة، وأن يجعل لهم إلها وثنا كما لغيرهم آلهة، ويذهب ليتلقى الألواح من ربه فيتخذون لعبادتهم عجلا جسدا يعبدونه من دون الله، ويريد لهم العزة والكرامة بدخول الأرض المقدسة فيقولون له ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ فلما يئس منهم قال ﴿ قَالَ رَبِّ

إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ثم كانت دعوته عليهم ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

ولقد لبث عيسى عليه السلام في بني إسرائيل يدعوهم إلى الله، وقد أراهم من آيات ربه ما رأوا، فكانت نهايته فيهم أن سعوا في قتله.

ولقد كانت المعجزة الباهرة على يد سيدنا محمد ﷺ الحانية والآسية، وفي شخصيته الفذة المباركة التي جعلها الله مفتاحا لمغاليق القلوب، وأقفال النفوس، ففتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، واستطاع في هذا الأمد اليسير أن يحوّل جهالة قومه إلى علم وحكمة، وشتاتهم إلى قوة ومنعة، وشكهم وشركهم إلى إيمان واطمئنان، ثم كانت دعوته لهم لا عليهم ﴿اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون﴾.

وإنها لحكمة بالغة وآية جليلة باهرة: أن يؤلف الله بسيدنا محمد ﷺ بين هذه القلوب المتناكرة، والأحزاب المتناحرة، والقبائل المتصارعة، واللبنات الصحراوية المتناثرة في جزيرة العرب؛ ليقيم منهم بنيانا واحداً يشد بعضه بعضا، وجسدا واحدا يتألم لألم عضو منه، وأمة واحدة متآخية متناصرة متعاونة، يذكرهم ربهم بها، ويدعوهم إلى تأصيل بنيانها، وتوثيق عراها قائلا ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ،﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾

وإنها لحكمة بالغة ان تتحول به هذه الأمة الأمية الجاهلة من الظلم والجور إلى العدل والرحمة، ومن الفجور والفسوق إلى الأمانة والعفة، وأن تصبح أمة تُعَلِّم الناس مكارم الأخلاق، ومحامد السلوك، وهي تستمد منهم الأسوة والقدوة﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ وقد أثنى عليه ربه بجماع الخير كله فقال سبحانه﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

وإنها لحكمة بالغة أن يتخذ الله من هذا النبي الأمي معلما للبشرية جميعا، وأن تتحول به هذه الأمة الأمية إلى أمة عالمة ومعلمة للعالم؛ تحمل مشعل الهداية، وميراث النبوة وعهد النبيين جميعا إلى العالم أجمع.

لقد ابتعثه الله إلى الناس معلما وفي الحديث ﴿إنما بعثت معلما﴾ وفي التنزيل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ويقول صلوات الله وسلامه عليه ﴿مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة طيبة قبلت

الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان؛ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلكم مَثَلُ من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعلّم، ومن لم يرفع لذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به﴾

ولله درّ البوصيري حين قال:

كفاك بالعلم في الأميّ معجزة — في الجاهلية والتأديب في اليتم

بهذه المعاني وغيرها كان رسول الله ﷺ منقذ الأمة وباعثها ومعلمها، وكان مثل الإنسانية وأسوتها وقدوتها، وكان سيد الأنبياء وإمام المرسلين، وسيّداً في الأولين والآخرين، والله در الجارم حين قال:

محمد أنقذت الخلائق بعد ما — تنكبت الدنيا بهم وتنكبوا

وأنقذت عقلا كان بالأمس مصفدا — فدان له سر الوجود المحجب

وأمليت دستورا شقينا بتركه — فثرنا على الأيام نشكو ونعتب

كان صلوات الله وسلامه عليه آخر الأنبياء خلقا، وأكملهمخُلقا ﴿إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾ وكان آخرهم ميلادا، وأولهم إسلاما ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وكانت رسالة كل نبي حلقة في سلسلة هذا الدين، وكانت رسالته هي الدين كله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

بهذه المعاني العظيمة وغيرها خلد رب العالمين ذكر رسوله، فذِكْره ماثل بيننا دائما يتلألأ في كل موطن من مواطن الإسلام: عقيدة وعبادة، وآدابا وسلوكا، وهديا وسمتا،تفتر عن ذكره ملايين الألسنة والشفاه كل يوم، بل كل وقت، كلما قرأ القرآن قارئ، وكلما حدّث للحديث محدّث، وكلما دخل في الإسلام مسلم، وكلما أذن للصلاة مؤذن، وكلما أقام للصلاة مقيم، وكلما صلى لله مصل، وكلما وكلما ...، وسيظل ذكره قائما في فم الدنيا إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم، وإلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

إن ذكرى الميلاد العظيم ليست كما يراها عوام المسلمين: سرادقات تقام، ولا أعلاما ترفع، ولا مصابيح تضاء، ولا زينات تعلق، ولا حلوى تؤكل، ولا طبولا ومزامير...وهذا حظهم من الذكرى.

إن ذكرى رسول الله ﷺ فوق ترفُّعِها عن المهازل التي تحاك حولها، والصغائر التي تشوه من منظرها، والمآثم التي ترتكب أحيانا باسمها – حين يختلط الرجال بالنساء، والشباب بالفتيات في بعض القرى والبلدان- يجب علينا أن ننزه ساحة رسول الله ﷺ عنها، وأن نعرف له حقه علينا بأن نتدارس

من سيرته ما يمكن أن يكون لنا قبسا على طريق هذه الحياة، ونبراسا ينير لنا الطريق إلى الله، وأن نعرف له حقه علينا من الطاعة والمحبة له، والاقتداء والتأسي به، والمحافظة على دينه وسنته.

والله أسأل أن يكفل آخر هذه الأمة بما كفل به أولها، وأن يجعل لنا من ذكرى ميلاد رسوله ميلادا لبعث جديد تتدارك فيه الأمة ما فرط منها، وما فرطت فيه؛ حتى تعود عودا حميدا إلى سنة نبيها ومجد أسلافها؛ إنه سميع قريب مجيب.

كتبه العبد الفقير إلى رحمة ربه العربي منادي بولاية سعيدة

يوم الاثنين 19 أوت 2024م الموافق لـ 15صفر 1446هـ